الحلقة 25

إعداد: هشام المنشاوي

وقعت هذه المعركة شمال الكويت

18 ألف مسلم كسروا جحافل الفرس في «ذات السلاسل»

بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعام واحد، وبالتحديد في أوائل محرم سنة 12 هجرية، وقعت معركة ذات السلاسل بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد والفرس بقيادة هرمز، وانتهت بانتصار الجيش الإسلامي.

كانت الدولة الإسلامية في خلافة أبي بكر الصديق تقع بين فكي أقوى دولتين في العالم وقتها: دولة الفرس من ناحية الشرق بأرض العراق وإيران، ودولة الروم النصرانية في الشمال، وبعد دراسة للموقف قرر أبو بكر البدء بالجبهة العراقية، فأمر قائده خالد بن الوليد بالتوجه لغزو العراق، ووضع خطة عسكرية هجومية، حيث أمر خالد بن الوليد بالهجوم على العراق من ناحية الجنوب، وفي نفس الوقت أمر عياض بن غنم بالهجوم من ناحية الشمال، ثم قال لهما: من وصل منكما أولاً إلى «الحيرة» واحتلها فهو الأمير على كل الجيوش بالعراق، فأوجد بذلك نوعاً من التنافس الشريف والمشروع بين القائدين.

ومعركة ذات السلاسل أو معركة كاظمة هي معركة وقعت في سنة 12 هـ بين جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد وجيش الفرس بقيادة هرمز والتي وقعت في أرض كاظمة (شمال دولة الكويت حالياً)، وانتهت بإنتصار المسلمين.

وبعد انتهاء حروب الردة في البحرين، أغار المثنى بن حارثة الشيباني برجال من قومه على أطراف العراق، فبلغ ذلك أبي بكر فسأل عنه، فأثنى عليه قيس بن عاصم المنقري. ثم قدم المثنى بنفسه إلى المدينة يطلب من أبي بكر، أن يستعمله على من أسلم من قومه ليقاتل بهم الفرس، فكتب له أبو بكر في ذلك عهدًا. ثم رأى أبو بكر أن يمُدّ المثنى ليتابع غزواته، لذا أمر خالد بأن يجمع جنده في اليمامة، وألا يستكره أحدًا منهم، ويتوجه إلى العراق، وكتب إلى المثنى يأمره بطاعة خالد. سار خالد إلى العراق في المحرم من سنة 12 هـ بعشرة آلاف مقاتل، وانضم إليهم ثمانية آلاف كانوا مع المثنى.

الخطة العسكرية

سار خالد إلى الأبله، في شهر محرم عام 12 هجريًا، الموافق أواخر مارس عام 633م، وعندما اقترب من مشارفها، كتب إلى حاكمها هرمز يدعوه إلى إحدى الخصال الثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب.

استيفاء خالد للأركان الشرعية: وهو بهذا يستوفي ركنين شرعيين: الأول أداء واجب الدعوة قبل الحرب، والثاني إعلان الحرب في حال الرفض، بالإضافة إلى إحداث أثر نفسي، بإلقاء الرعب في قلب عدوه بما اشتمل عليه الكتاب من تهديد ووعيد.

خالد وخطته العسكرية لدخول العراق: رسم خالد خطته العسكرية على أساس، دخول العراق من أربعة محاور، على أن تلتقي الفرق العسكرية الأربعة في الحفير، والحفير هي أول منزل من البصرة لمن يريد مكة، وعندما علم هرمز بزحف المسلمين، تصرف على محورين!

هرمز ورد فعله على الزحف الإسلامي: فتصرف هرمز على محورين، المحور الأول: كتب إلى الإمبراطور قباذ الثاني شيرويه، وإلى أردشير بن شيرويه، يخبرهما بالوضع الميداني المستجد، والمحور الثاني: عبّأ قواته، وزحف بها إلى الحفير، للاصطدام بالمسلمين.

تغير خالد لخطته العسكرية و لحاق هرمز به: لكن هرمز لم يحظى بالجيش الإسلامي، لأن خالدًا غير بعض جزئيات من خطته العسكرية، لأسباب تكتيكية، وتوجه إلى كاظمة، وكاظمة هي على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان.

معركة ذات السلاسل: لحق هرمز خالد والجيش الإسلامي في كاظمة، فلحقه هرمز إلى هناك، واصطدم به بعد أن ربط جنوده بسلاسل، خشية الفرار، فبارزه خالد وقتله، وتعرض جيشه للهزيمة، وفرّت فلوله، فطاردهم المثنى، وانتقل خالد بعد المعركة إلى منطقة البصرة، ونزل من موقعها، وسيطر على الخريبة، وهي من مسالح الفرس.

رد فعل القيمون على الحكم في العراق على انتصار الجيش الإسلامي: بعد أن انتصر جيش المسلمين انتصارًا باهر على الجيش الفارسي، في معركة ذات السلاسل، وقد وصلت أنباء انتصار المسلمين على الجيش الفارسي في كاظمة، وقد أدرك القيمون على الحكم مدى تأثير ذلك سلبيًا على وضعهم في العراق، وقد علموا أنهم إن لم يتحركوا فوراً لوقف الجيش الإسلامي، فإن عاصمتهم تصبح مهددة، لذلك قرروا متابعة القتال، ضد زحف الجيش الإسلامي في العراق.

المعركة

أرسل خالد بن الوليد وهو في طريقه إلى العراق إلى هرمز حاكم العراق الفارسي يُخيّره بين الإسلام أو الجزية أو القتال، فآثر هرمز القتال، وأرسل إلى كسرى يطلب المدد، فأمدّه كسرى بإمدادات كبيرة تحرك بها هرمز إلى كاظمة حيث يعسكر جيش المسلمين. ناور خالد بجيشه فتحرك إلى الحفير، ليجد هرمز كاظمة خاوية. ثم لاحق هرمز إلى الحفير، وسبقهم إليها، ليعود خالد مجدداً إلى كاظمة. أراد خالد من ذلك استغلال نقطة ضعف الجيش الفارسي والتي هي ثقل تسليحه، مما يجعل أي تحرك للجيش مُجهد لأفراده. غضب هرمز لذلك، وتحرك بجيشه نحو كاظمة، وعسكر بالقرب من موارد الماء ليمنع الماء عن المسلمين. فأثار ذلك حماسة المسلمين، وخطب فيهم خالد قائلاً: «أَلا انْزِلُوا وَحُطُّوا أَثْقَالَكُمْ، ثُمّ جَالِدُوهُمْ عَلَى الْمَاءِ، فَلَعَمْرِي لَيَصِيرَنّ الْمَاءُ لأَصْبَرِ الْفَرِيقَيْنِ، وَأَكْرَمِ الْجُنْدَيْنِ».

أمرَ هرمز رِجَاله بربط أنفسهم بالسلاسل، حتى لا يفروا من أرض المعركة وليستميتوا في القتال. بدأت المعركة بالمبارزة حين طلب هرمز مبارزة خالد، واتفق هرمز مع بعض فرسانه أن يفتكوا بخالد إن خرج للمبارزة.

انفراط عقد الجيش الفارسي

عندما وصل المسلمون إلى منطقة المذار راح خالد بن الوليد يتفحص المعسكر، وأدرك بخبرته العسكرية، وفطنته أن الفزع يملأ قلوب الفرس، وذلك عندما رأى السفن راسية على ضفاف النهر، أمر المسلمين بالصبر والثبات في القتال، والإقدام بلا رجوع، وكان جيش الفرس يقدر بثمانين ألفاً، وجيش المسلمين بثمانية عشر ألفاً، وخرج قائد الفرس قارن وكان شجاعاً، وطلب المبارزة من المسلمين فخرج له رجلان: خالد بن الوليد وأعرابي من البادية اسمه معقل بن الأعشى الملقب بأبيض الركبان لمبارزته، وسبق الأعرابي خالد، وانقض على قارن وقتله في الحال، وخرج بعده العديد من أبطال الفرس وقادتهم فبارز عاصم بن عمرو القائد «الأنوشجان» فقتله، وبارز الصحابي عدي بن حاتم القائد قباذ فقتله في الحال، وأصبح الجيش الفارسي بلا قيادة. وكان من الطبيعي أن ينفرط عقد الجيش الفارسي بعد مصرع قادته، ولكن قلوبهم كانت مشحونة بالحقد والغيظ من المسلمين، فاستماتوا في القتال، ولكنهم فشلوا في النهاية وانتصر المسلمون انتصارا مبينا، وفتحوا مدينة الأيلة، وكان هذا الانتصار فاتحة سلسلة طويلة من المعارك الطاحنة بين الفرس والمسلمين على أرض العراق كان النصر فيها حليفاً للمسلمين.

إمدادات

وكانت أول مدينة يصل إليها خالد بن الوليد هي مدينة «الأيلة»، وكانت ذات أهمية استراتيجية، ومنها تأتي كل الإمدادات للحاميات الفارسية المنتشرة بالعراق، وكانت هذه المدينة تحت قيادة أمير فارسي اسمه «هرمز»، كان متكبراً، شديد البغض للإسلام والمسلمين، وعندما وصل خالد بقواته هناك، وكان تعداد هذه القوات ثمانية عشر ألفاً، أرسل برسالة إلى هرمز قال فيها: «أما بعد فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذمة، أو أقر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فلقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

ورفض هرمز رسالة خالد وأرسل إلى كسرى يطلب الإمدادات، وقد أمده بإمدادات كبيرة جداً. وقرر هرمز الهجوم على مدينة كاظمة ظناً منه أن المسلمين سوف يعسكرون هناك، ولكن خالد توجه بجيشه إلى منطقة الحفير، وأقبل هرمز إلى كاظمة فوجدها خالية وأخبره الجواسيس بأن المسلمين قد توجهوا إلى الحفير، فتوجه هرمز بسرعة كبيرة إلى الحفير حتى يسبق المسلمين، وبالفعل وصل هناك قبل المسلمين، وقام بالاستعداد للقتال، وحفر خنادق، وقرر خالد تغيير مسار جيشه راجعاً إلى الكاظمة ليعسكر هناك ويستريح الجند قبل القتال، فاشتاط هرمز غضباً، وتحرك بجيوشه المرهقة إلى الكاظمة، وقبل أن يصطدم هرمز مع جيوش المسلمين طلب من كسرى إمدادات أخرى، فأرسل له إمدادات كبيرة يقودها قارن بن قرباس يكون دورها الحفاظ على مدينة الأيلة في حالة هزيمة هرمز.

وصف الغزوة

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعاً من بلىٍّ وقضاعة (قلت هذا الاسم يشمل قبائل سلامان وعذرة وسعد الله) قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص فعقد له لواءً أبيض، وجعل معه رايةً سوداء، وبعثه في سراة المهاجرين والأنصار – في ثلاثمائة – عامر بن ربيعة، وصهيب بن سنان، وأبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وسعد بن أبي وقاص؛ ومن الأنصار: أسيد بن حضير، وعباد بن بشر، وسلمة بن سلامة، وسعد بن عبادة. وأمره أن يستعين بمن مر به من العرب، وهي بلاد بلىٍّ وعذرة وبلقين، وذلك أن عمرو بن العاص كان ذا رحم بهم؛ كانت أم العاص بن وائل بلويةً، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألفهم بعمرو.

فسار، وكان يكمن النهار ويسير الليل، وكانت معه ثلاثون فرساً، فلما دنا من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فنزل قريباً منهم عشاءً وهم شاتون، فجمع أصحابه الحطب يريدون أن يصطلوا – وهي أرضٌ باردةٌ – فمنعهم؛ فشق ذلك عليهم حتى كلمه في ذلك بعض المهاجرين فغالظه، فقال عمرو: أمرت أن تسمع لي وتطيع! قال: فافعل!

وبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره أن لهم جمعاً كثيراً ويستمده بالرجال، فبعث أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواءً، وبعث معه سراة المهاجرين – أبي بكر وعمر رضي الله عنهما – والأنصار، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحق عمرو بن العاص. فخرج أبو عبيدة في مائتين، وأمره أن يكونا جميعاً ولا يختلفا. فساروا حتى لحقوا بعمرو بن العاص، فأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ويتقدم عمراً، فقال له عمرو: إنما قدمت علي مدداً لي، وليس لك أن تؤمني، وأنا الأمير؛ وإنما أرسلك النبي صلى الله عليه وسلم إلي مدداً. فقال المهاجرون: كلا، بل أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه! فقال عمرو: لا، بل أنتم مددٌ لنا! فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف – وكان حسن الخلق، لين الشيمة – قال: لتطمئن يا عمرو، وتعلمن أن آخر ما عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال: "إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا". وإنك والله إن عصيتني لأطيعنك! فأطاع أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس. فآب إلى عمرو جمعٌ – فصاروا خمسمائة –

فسار الليل والنهار حتى وطىء بلاد بلىٍّ ودوخها، وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه كان بهذا الموضع جمع فلما سمعًوا به تفرقوا، حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلىٍّ وعذرة وبلقين، ولقي في آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير، فقاتلوا ساعةً وتراموا النبل، ورمي يومئذ عامر بن ربيعة بسهم فأصيب ذراعه. وحمل المسلمون عليهم فهزموا، وأعجزوا هرباً في البلاد وتفرقوا.

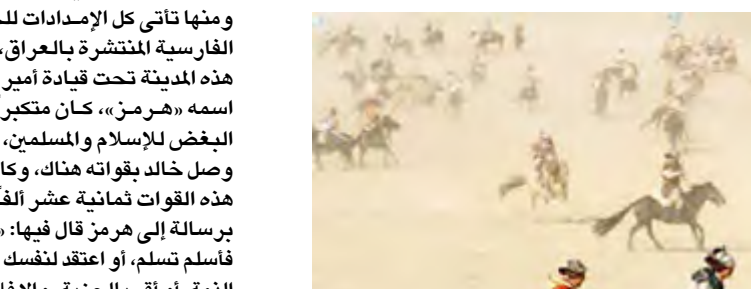

مقدمات الغزوة

هذه الغزوة وقعت ضمن سلسلة سرايا بثها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتثبيت الاسلام في جزيرة العرب وحماية المدينة المنورة من المتربصين بها من العرب وفارس والروم وقد سبقها سرايا مشابهة مثل: سرية زيد بن حارثة إلي وادي القرى في رجب سنة ست. سريةٌ أميرها عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل في شعبان سنة ست.

غزوة علي عليه السلام إلى فدك في شعبان سنة ست. ثم غزوة زيد بن حارثة إلى أم قرفة في رمضان سنة ست ناحية وادي القرى إلى جانبها.

غزوة كعب بن عمير الغفاري في سنة ثمان، في ربيع الأول، إلى ذات أطلاح وأطلاح ناحية الشام من البلقاء على ليلة. ثم غزوة زيد بن حارثة إلى مؤتة، سنة ثمان.

ولعل من مقاصد الغزوة هو ابعاد الظن بضعف المسلمين بعد غزوة مؤتة حيث تسامع العرب بضعف الجيش امام الروم .الروم لا شك انهم بدأوا بدفع حلفائهم من قبائل الشمال الغربي لمهاجمة المسلمين ولعل من أهداف هذه الغزوة التمهيد لغزوة تبوك الكبرى من رجب سنة تسع.